ورقة بحثية تأملية حول دراسة واقع المدارس الفلسطينية

فراس ناصر

لم يخطر في بالي يوماً أني سأكون باحثاً في مجال العلوم الإنسانية، وربما يعود ذلك إلى طبيعة دراستي البعيدة أساساً عن هذا المجال. فلطالما عملت بالأبحاث والدراسات الفيزيائية، من ضبط للمتغيرات وتحييد للعناصر والخروج بالنتائج. وكانت قناعتي أن دراسة العلوم الطبيعية هي من أصعب الدراسات وأعقدها، وظل هذا الاعتقاد لدي حتى بدأت اتجه نحو العلوم الإنسانية والتربوية بشكل خاص مع بداية عملي معلماً في إحدى المدارس الفلسطينية، حيث وجدت ما هو أصعب من ذلك بكثير، فأنت تتعامل مع متغيرات ديناميكية، فبمجرد دخولي إلى صف يحوي ثلاثين طالباً، وربما أكثر، فأنا أتعامل مع ثلاثين عقلية ونفسية باحتياجاتها ومتطلباتها وأمزجتها كافة. لم يكن لدي الخبرة في التعامل مع هذه الاحتياجات، وعندما تقع الإشكاليات، فإنني، في الغالب، أبدأ فصلاً من التجربة والخطأ، والتعثر تارةً والنهوض تارةً أخرى. وكنت في كثير من الأحيان ألجأ إلى الزملاء السابقين، فيعطونني حلولاً جاهزة: فليس أنفع لهذه العقول والنفسيات والأمزجة المتقلبة من لغة وفلسفة الاستعلاء وبناء الحواجز، بل وحتى الضرب بيد من حديد. هذا ما كانوا يقولونه في معظم الأحيان. لماذا هذا كله؟ لكي تستمر العملية التعليمية وفق ما خطط لها. فهناك من يعطي، وهناك من يتلقى، وبالنسبة لهم، الصمت والضبط يجب أن يكونا سيد الموقف.

لقد كنت أنظر إلى العملية التعليمية برمتها على أنها عملية فيزيائية محضة، فهناك منهاج وطالب ومعلم، فالمنهاج بمثابة المعلومات، والطالب هو المتلقي، والمعلم حلقة الوصل بينهما. وكانت العملية تشبه في نظري جهاز كمبيوتر موصول مع جهاز آخر يتم برمجته، فهل أنا على دراية بكيف يبنى الإنسان نفسه؟ وهل بلغت حدود وعيي بما أفعل؟ أم أنا فاعل فقط؟ وهل سأكتفي أن أكون منفذاً للوائح والقوانين فقط؟

عندها شعرت أني أقع في بحر من الإشكاليات والمتغيرات، ويجب أن أقف وقفة بحث وتفكير عميقين من أجل التغيير.

العبور

كان هناك شعور بالرهبة عندما بلّغت باختياري لهذه المهمة، لعلها الرهبة التي تدفع الإنسان للعمل والجد. فهل سأسير وفق منهجية معينة؟ أم علي أن أنتج معرفتي وطريقتي الخاصة؟ وعبر اللقاءات العديدة التي عقدناها في المركز حول البحث، تعلمت عن منهجيات البحث، ودور الباحث، وموقعه خلال العملية البحثية، وطرق جمع البيانات وتحليلها. وجاء فترة التطبيق العملي، ودخلت موقع الدراسة ومعي دفتر ملاحظاتي وجهاز تسجيل خاص، ولدي شعور بالخوف. فعلى الرغم من اللقاءات البحثية فإنني لم أكن على ثقة

تامة بما سأقوم به، فما زالت المفاهيم الكامنة تطغى على تفكيري، فكلمة المدرسة، المعلم، المدير، الطالب، المشرف، بمثابة الثوابت التي لا تتغير في تفكيري. لكن عندما كنت أسأل المعلمين في الدراسة: ماذا تعني بالنسبة لك مهنة التعليم؟ أو ماذا تعني بالنسبة لك كلمة معلم؟ كان يتغير مع هذه الأسئلة كل ما هو كامن في تفكيري عن هذا الموضوع، وتتولد في داخلي معان جديدة، فالتعليم ليس روتيناً على سبيل المثال، وبالتأكيد لا يشبه عملية ميكانيكية تبدأ بمجرد الضغط على مفتاح الآلة، وتنتهي حال انتهاء الآلة من أداء عملها، بل هو عملية فاعلة متغيرة مستمرة، قد لا تحصر بآلية أو تُحد بمنهاج. وكم كنت أشعر أثناء إجابات المقابل بأني في الأساس أنشئ جيلاً بشرياً حياً قادراً على التعامل مع متغيرات الحياة التي من صفتها الجريان والتغير المستمر، ولا أريد إنشاء قوالب جامدة أو نماذج كربونية جاهزة. لذلك، أستطيع القول إنني، ومن خلال عملية البحث، كنت أحاور الكامن في داخلي، وأنتقل من «الثابت» إلى «المتغير»، ومن المتلقي إلى المنتج. فالمعلم لا يتلقى الأسئلة والتغذية الراجعة والانطباعات فحسب، بل عليه أن يكيف نفسه وينتج معرفته ويطور أسلوبه ويتعامل مع الموقف حسب ما يقتضيه، فالعملية أصبحت في نظري واسعة، ومجال حريتي فيها كبير، والمنهاج الذي بين يدي بإمكاني أن أكيفه كيفما أشاء وأتوسع فيه، وفق ما أراه مناسباً وملائماً لطلبتي.

خارج الوعي أم داخله

لقد كانت إجابات المعلمين تتمحور في الغالب حول قضايا محددة ومحصورة: فمن مشاكل المنهاج وتعقيداته، إلى مشكلة الصلاحيات والقوانين، إلى مشكلة محدودية الدخل والإمكانيات، إلى عقم الدورات وجدواها، إلى ضغط الوقت وفوضى الطلاب، فيما يبدو أننا كمعلمين لم نحدد مواقعنا من ذلك كله بعد، وهي إشكالية الوعي بالعملية التعليمية وموقعي منها بالضبط.

أعتقد أن وعيي يفرض عليّ أن أكون فاعلاً، وهنا يثار سؤال آخر، ما هو التعليم الجيد إذن؟ لا أستطيع أن أعرفه، لكن بالتأكيد أستطيع أن أشعر به عندما يتحقق، فليس هناك أفضل من أن أخرج من حصتي منتشياً، معتزاً بما قدمت، ويغمرني شعور داخلي بأن طلابي كانوا متفاعلين، طارحين سيلاً من الأسئلة بكل عفوية وبراءة، عندها أشعر أني قدمت شيئاً استلهم طلابي وتفاعلوا معه، وارتقوا إلى مستوى أعلى عبره. وأستطيع أن أشعر بالحصة السيئة عندما يسود الصمت القاتل جو الحصة، والشعور الداخلي بأن طلابي على وشك التفلت في كل لحظة، أو أن هناك إشكالية ما ستحدث في جو الصف، ولا أسئلة ولا نقاش، وشعوري الداخلي بأن الوقت يمر بتثاقل وببطء شديد، فهنا لا يحدث بناء ولا ارتقاء ولا تفاعل. عندها أشعر بأني لم أقدم شيئاً، ويكون ذلك واضحاً في عيون الأطفال.

إذا أردنا أن نسقط ذلك كله على سياق البحث الحالي، فالحالة متشابهة إلى حد كبير. فعندما كنت أشاهد حصة عند أحد المعلمين، أو أقوم بإجراء مقابلة مسجلة معه، كان لا بد لي من أن أعي الدور الذي أقوم فيه، فوجودي سيؤثر على مجريات الأحداث وبصورة كبيرة وفق ما رأيت واستلهمت، لكن في الوقت نفسه كنت على دراية بأني أنا الذي سيكون موضوع البحث في النهاية، وليس المعلمين الذين قابلتهم أو شاهدت حصصهم، كوني معلماً مثلهم، وأعيش يومياً ما يعيشونه في مدارسهم، فأنا أتأمل في دوري وفي حياتي المهنية من خلالهم هم. ولا بد إذاً أن أعترف بأني قد تأثرت وأثرت في النتائج في كثير من الأحيان، لأن الانطباعات والأفكار والمعلومات نقلت من خلالي أنا، وبالتالي لا مجال للموضوعية في مثل سياق كهذا. وكثيراً ما حاولنا الخروج من معضلة الموضوعية والذاتانية، من خلال نقاش نتائجي مع الزملاء الباحثين، ومع المبحوثين أيضاً.

أما إشكالية تأثر المبحوثين بوجودي فهي إشكالية قائمة، ويصعب التغلب عليها، فأنا على دراية أيضاً بأني أخلق الحيز والأحداث عبر وجودي داخل الصف. فهل عامل الزمن يمكن أن يحل ذلك؟ وهل يمكن أن يصبح وجودي شيئاً عادياً وروتينياً بالنسبة للطلبة والمعلم؟ ربما يكون هناك بعض المؤشرات المتعلقة، مثل عودة جو الفوضى في الحصة إلى حد ما، بعدما أن كانت منضبطة لوجود شخص غريب مثلي في الحصة، فهل أصبحوا غير مكترثين لوجودي؟ هل هذا دليل على أنهم قد نسوني ولو لوهلة؟

إعادة الحياة إلى المدرسة

مما لا شك فيه أن البيئة والجو العام الذي يعيشه الطالب وتفاعله مع أقرانه، يؤثر بشكل مباشر وملموس على تعلمه ودراسته، وبناء شخصيته التعليمية، إن جاز التعبير، وصقل عقليته وتحديد رؤيته للأمور، وهنا تكمن مشكلة أخرى عندما تصبح الحياة خارج المدرسة تسير في اتجاه، والحياة المدرسية تسير في اتجاه آخر، فكيف لنا أن نوفق بينهما؟ وكيف لنا أن نوفق بين اهتمام الطلبة وهمومه وبين العملية التعليمية، فهم يرون في المدرسة ذلك القيد الثقيل، والعبء الكبير على كواهلهم، من هنا جاء التفكير، كيف نبعث الحياة في العملية الدراسية برمتها؟ الجواب يكمن جزئياً في إيجاد المعلمين والطلبة الفاعلين والفعالين لكي يعملوا معاً في جو جديد. لكن كيف؟

نجاح للفرد أم فشل للنظام

كيف لنا أن نعرف النجاح في العملية التعليمية الممتدة طوال اثني عشر عاماً من عمر الفرد؟ وأين نضع نجاح أحد الطلاب في التوجيهي بتحصيل مئة بالمئة في الرياضيات في التوجيهي، وهو كان أكمل في هذه المادة وهو في الصف الحادي عشر، يقول عنه معلمه «بس

الولد كان مش سيئ»، أي أنه لم يفتقر إلى التأسيس المطلوب، فلماذا أكمل في مادة الرياضيات في الحادي عشر، وكيف تمكن من أن يحرز علامة كاملة في التوجيهي، هل هذا هو النجاح المطلوب يا ترى؟ وهل العملية متواصلة ومبنية على بعضها البعض؟ وهل هو نجاح لهذا الطالب؟ أم فشل للنظام!! سيبقى هذا السؤال بحاجة إلى إجابة. فكيف نعلم؟ وكيف نقيّم؟ وكيف نبني عملية متكاملة.

انتماء بلا حدود

عندما سألت أحد المشرفين التربويين ما المطلوب من المعلم؟ أجاب «أن يقوم بالأعمال كافة التي توكل إليه من قبل مدير المدرسة، ووزارة التربية والتعليم، أن تكون ملفات المعلم منظمة ومرتبة، وإدارته للصف جيدة ومضبوطة، وأن ينفذ الحصة بشكل صحيح وممتاز، وسلوكه وعلاقته مع الطلاب جيدة، وأن يكون له أثر فاعل على المدرسة، ليس على طلاب صفه فحسب، إنما على كل طلاب المدرسة أيضاً، وأن يكون له أثر على المعلمين، وعلى البيئة المحلية، وعلى المجتمع المحلي».

لعل هذه الكلمات وافية وكافية، ولكن كيف نفسر الانتماء للعملية التعليمية من خلال هذه الكلمات، وماذا يعني الانتماء لكل من الطالب والمعلم؟ وكيف ترى وزارة التربية والتعليم مفهوم الانتماء؟ هل يقاس الانتماء بالظاهر، أي تنفيذ المعلم لإجراءات كما وصفها الموجه سابقاً؟ هل يمكن تحقيقه من خلال معايير المعلمين؟ أريد هنا أن أتناول مفهوم الانتماء ليس من خلال الطالب ولا المعلم، بل من خلال شخصية الآذن في إحدى المدارس الفلسطينية، هذا الرجل قدم لمدرسته الكثير، حوّل ساحاتها إلى حدائق جميلة، يرعاها كطفل له، وصل الليل مع النهار في العمل الدؤوب، طرق جميع الأبواب، لم يترك صانع حجر، ولا صاحب مواد بناء، ولا بائع تراب، ذهب إلى الإغاثة الزراعية، جلب منهم الأشجار والورود، وزرعها داخل المدرسة، بل جلب سريره ونام داخل المدرسة، بسبب ظروف الانتفاضة الأولى في حينها، هذا الإنسان لم يخضع لدورات تدريبية ولم يكلفه أحد بذلك، ولم يتلق أية حوافز مادية أو غيرها. فهل نستطيع تفسير الانتماء من خلاله؟ ومن خلال الأعمال التي قام بها؟ أعتقد أن علينا أن نعيد النظر في مفهومنا للانتماء، وهذا سؤال آخر بحاجة إلى إجابة، ما هو الانتماء؟ ومن هو المنتمي؟ وكيف سنعيد لطلابنا ومعلمينا روح الانتماء؟

فراس ناصر
مدرسة ذكور دير قديس الثانوية

من الأنشطة التي تم تنفيذها في إطار بحث «صنع المعاني في المدارس الفلسطينية».